سلسلة فرسان الإسلام

٦

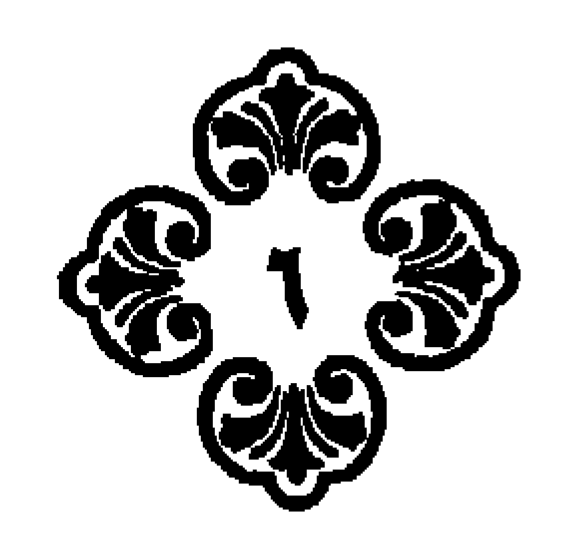
فاتح السند

محمد بن القاسم

خالد محمد خلاوي

مكتبة العبيكان

سلسلة فرسان الإسلام



فاتح السند
محمد بن القاسم

بقلم
خالد محمد خلاوي

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان

فاتح السند محمد بن القاسم .ـ الرياض.

٤٥ ص، ١٧X ٢٢ سم - (سلسلة فرسان الإسلام؛ ٦٤)

ردمك: ٦ - ٩٢٩ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١ـ محمد بن القاسم بن محمد، ت ٩٨هـ

٢ـ الفتوحات الإسلامية أ ـ العنوان ب ـ السلسلة

ديوي ٢٣٩,٩ ٢٢/٠٩٦٥

ردمك: ٦ - ٩٢٩ - ٢٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/٠٩٦٥

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

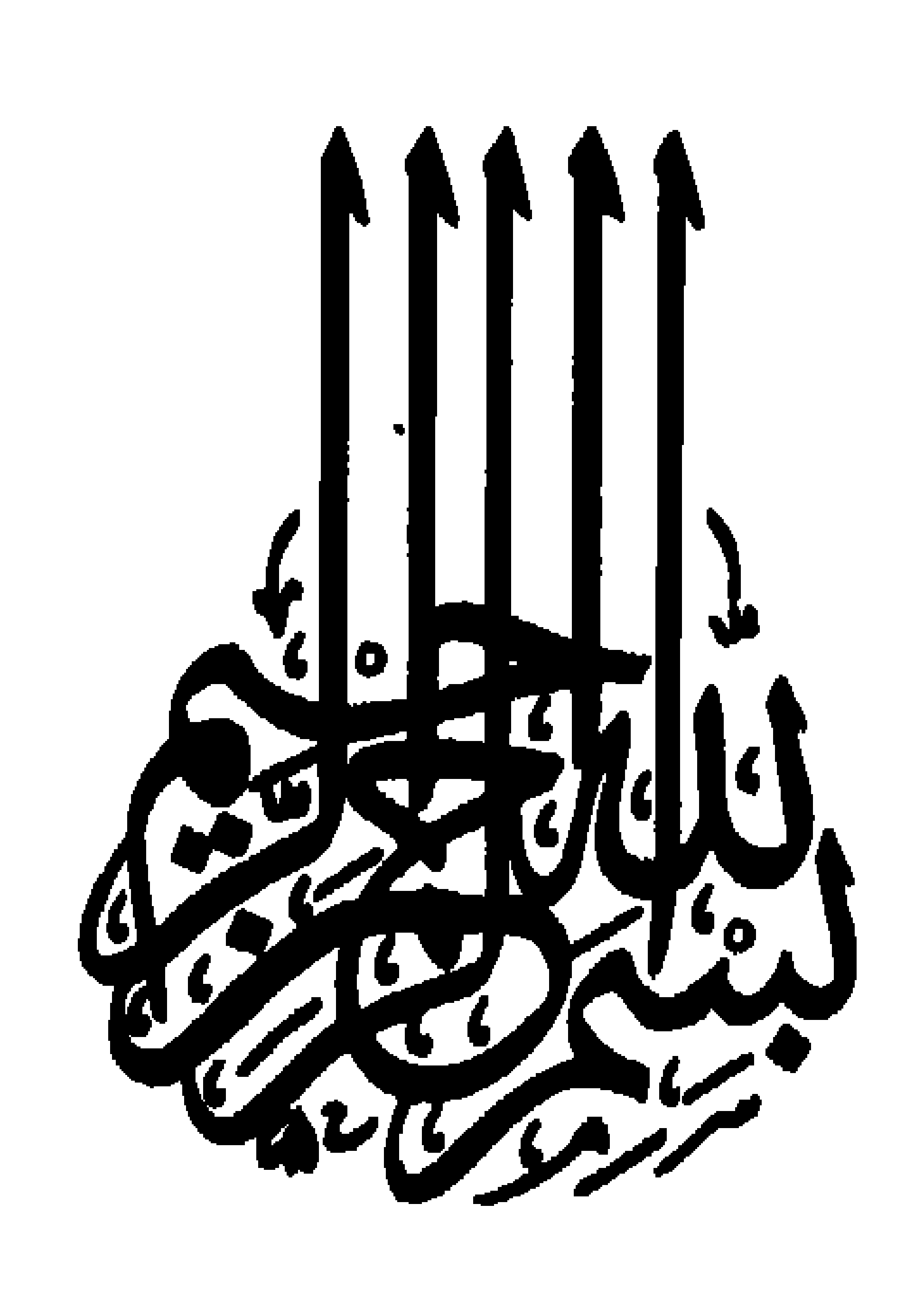
الناشـــر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

إن المروءة والسـمـاحـة والندى لمحـمـد بن القـاسـم بن مـحـمـد

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة يا قـرب ذلك سـؤدداً من مـولـد

الشاعر

حمزة بن بيض الحنفي

بطاقة تعارف

الاسم بالكامل: محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم الثقفي.

تاريخ الميلاد: عام (٧٢هـ).

مكان الميلاد: ديار بني ثقيف بالطائف.

مكانته في الإسلام:

- أصغر الفاتحين سنًّا.

- أذهل ملوك السند والهند ببطولاته وجهاده فلم يصدقوا أنفسهم عندما رأوا فاتحًا مسلمًا لا يتجاوز السابعة عشرة من عمره يفتح بلادهم..

- أعان محمد بن القاسم في نشر الإسلام في السند عدله مع الرعية.

- كان قدوة لكل فارس شاب من فرسان الإسلام، مؤكداً أن الطموح ليس له حدود..

وإليك صفحات من حياة مجاهد فتح بلاد السند ونشر فيها الإسلام.

البيت الثقفي

كان بنو ثقيف من سادة العرب في الجاهلية والإسلام، وكانت ديارهم بمدينة «الطائف» التي اشتهرت ببساتينها الواسعة الجميلة الوارفة الظلال، وعُرف الثقفيون بالشدة والقوة والجلد في المواقف والصبر على المكاره..

وهكذا ولد محمد بن القاسم في البيت الثقفي الذي يحمل من الصفات ما أهَّلَهُ ليصبح قائداً من قادة الفتوح الإسلامية على حداثة سنه..

* * *

وكان القاسم بن محمد – والد بطل السند – واليًا على البصرة من قبل الحجاج بن يوسف وهو أشهر رجالات البيت الثقفي في الإسلام، وكان الحجاج أميراً على العراق أيام الدولة الأموية، وقد عرف بالشدة وقوة الشخصية والقسوة في التعامل مع المخالفين، وكان للحجاج أثر كبير في تكوين شخصية محمد بن القاسم العسكرية وتدريبه على القيادة والفتح، وكان محمد بن القاسم يهدف أساسًا في جهاده إلى شهادة في سبيل الله أو نصر مبين، يفتح أرضًا جديدة للمسلمين لينشر فيها نور الإسلام..

ولد محمد بن القاسم سنة (٧٢هـ) في دار جده محمد بن الحكم بالطائف.

وكان القاسم ووالده محمد يجلسان في ليلة مولد بطل السند ينتظران نبأ الوليد الجديد، وما هي إلا سويعات حتى جاءتهم البشرى فسجد القاسم لله شكرًا، وأهل الدار يسألونه:

ماذا ستسميه؟

فأجاب مرددًا:

محمد.. محمد..

* * *

نشأ محمد في بداية مولده بالطائف، ولما عهد الحجاج إلى والده القاسم بولاية «البصرة» انتقل محمد إلى هناك، ومنها إلى مدينة «واسط» التي بناها الحجاج بن يوسف ونقل إليها قومه..

وفي مدينة «واسط» شاهد الطفل محمد بن القاسم ألوانًا من البشر يفدون إليها للتجارة، وكان فيهم تجار من أهل السند كان يسمع منهم عن عجائب بلادهم...

ولما بلغ محمد الخامسة عشرة من عمره بدأ الحجاج بن يوسف يدربه على القتال والفروسية وخوض المعارك، فكان يرسله مع الفرق التي تقوم بمهام قتالية هنا أو هناك.

وقد تطلعت نفسه إلى المشاركة في هذه الفتوح بدلاً من هذه الفرق الصغيرة التي كانت موجهة في الأساس لمحاربة المعارضين لحكم الحجاج.

وهكذا نشأ بطل السند محمد بن القاسم وتربى في بيت عرف بالقوة والبطولة والقيادة..

ومنذ أن انتقل ابن القاسم من الأعمال العسكرية الصغيرة التي كان يكلفه بها الحجاج إلى المشاركة في الجيوش الكبيرة المتوجهة للفتوحات بدأت رحلته مع البطولة والفروسية؛ ليصبح فارسًا من فرسان الإسلام المعدودين، وفاتحًا لبلاد واسعة مترامية الأطراف.. إنها بلاد السند..

فهيا نرحل مع ابن القاسم إلى هذه البلاد .. ونتابع فتوحه فيها مدينة.. مدينة..

(١)

فاتح السند

* الطريق إلى السند.
* فتح الديبل.
* معركة الفيلة.
* مدينة الذهب.

الطريق إلى السند

كان إقليم السند قديمًا أحد أقاليم شبه القارة الهندية المترامية الأطراف، وبوابتها من جهة الشرق، وكانت للعرب قديمًا صلات تجارية مع الهند عن طريق بلاد فارس، فكان التبادل التجاري بين العرب والهنادكة يشمل بضائع الهند من عطور ومنسوجات ومعادن وثمار..

وهكذا سمع محمد بن القاسم منذ نعومة أظفاره عن بلاد الهند وحضارتها وطبيعتها الجذابة، وثراء أهلها في المال، سمع عن وثنيتهم ومعتقداتهم الخاطئة والعادات السيئة التي يتصف بها الوثنيون في أي مكان، وتوالت الأيام والسنون، وكبر محمد وأصبح جنديًّا من خيرة الجند في جيوش المسلمين، وشاء الله أن يكون في صفوف المجاهدين في مدينة شيراز الفارسية؛ ليكون قريبًا من السند يستطلع أخبارها، ويتشوف إلى نشر نور الإسلام فيها..

* * *

ومن شيراز كان محمد بن القاسم يسمع أخبار القوافل التجارية عن التجار المسلمين القادمين من الجزيرة العربية ومن بلاد فارس إلى الهند وجزيرة سيلان..

وذات يوم سمع أخبار حادث مؤسف وقع في مدينة « الديبل » الهندية، وتبدأ قصة هذا الحادث في جزيرة « سيلان » إذ انطلقت منها أربع سفن تحمل نساء مسلمات كن زوجات وبنات لتجار مسلمين بالجزيرة، وتوفي أزواجهن وآباؤهن..

وعند ساحل مدينة « الديبل » الهندية هجم قراصنة هنود على السفن، واختطفوا المسلمات، وأصبحن أسيرات لدى القراصنة..

وبلغ الخبر الحجاج بن يوسف والي العراق، فغضب غضبًا شديداً وأرسل من فوره إلى « داهر» ملك السند يأمره بتخليص نساء المسلمين من الأسر، ورد « داهر» معتذراً بأنه لا يستطيع مواجهة لصوص البحر..

فغضب الحجاج من رد « داهر» وأرسل من فوره حملة بقيادة عبيدالله بن نبهان إلى « الديبل » لمواجهة القراصنة، غير أن هذه الحملة هُزمت، فأرسل الحجاج حملة أخرى بقيادة بديل بن طهفة فهزمت أيضًا وقتل قائدها..

وعندئذ استبدّ الغضب بالحجاج للمهانة التي لحقت بالمسلمين، ومما أصبح فيه من خطورة على هيبتهم أمام الأمم إن هو سكت على ذلك..

وأسرع الحجاج إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك يطلب منه الإذن بتسيير جيش لفتح بلاد السند، وتأديب قراصنة البحر، وتخليص المسلمات

من الأسر؛ ففي بقائهن أسيرات إهانة للمسلمين.

ولم تكن هذه المرة الأولى التي يطلب فيها الحجاج من الوليد هذا الطلب، فقد سبق أن طلب فتح السند غير أن الوليد رفض الأمر خوفًا على جند المسلمين من بلاد مترامية الأطراف، وعرة المسالك، قوية الحصون..

أما هذه المرة فلم يجد الوليد بدًّا من إجابة طلب الحجاج..!!

* * *

وفي الطريق إلى مقر ولايته جعل الحجاج يفكر فيمن يوليه قيادة الجيش المتجه إلى بلاد السند، وعندما وصل إلى قصره وجد ابن عمه محمد بن القاسم في انتظاره، وقد بلغه الخبر.. فبادره قائلاً:

مولاي الحجاج .. لقد علمت بما حدث في الديبل.. فهلا أرسلتني إلى ثغر السند؟..

ولم يفهم الحجاج مقصد ابن عمه فرد عليه قائلاً:

نعم الروح روحك يا محمد.. إني مسيِّرك إلى هناك في جيش يقوده.. يقوده أبوالأسود بن جهم..

وجلس الحجاج على أريكته مسترخيًا، فاقترب محمد من أذنيه قائلاً:

بلاد فارس في حاجة إلى قائد عرفها وعرف دروبها مثل أبي الأسود فأبقه هناك..

فكرَّ الحجاج قليلاً ثم قال:

ولكن من يقود الجيش إذن؟..

فقال محمد بن القاسم في نبرة قوية:

أرسلني أنا إلى السند؛ آتيك بالمسلمات اللائي اختطفن وآخذ بثأر المسلمين..

فقال الحجاج متردداً:

ولكن سنك الصغير يا محمد لا تؤهلك لقيادة الجيش، فأنت لم تتجاوز عامك السابع عشر..

فقال محمد:

اختبر بلائي وصدق عزيمتي هذه المرة يا ابن العم..

فقال الحجاج مبتسماً:

يعجبني إصرارك وإقدامك.. ولكن..

فقاطعه محمد بن القاسم قائلاً:

والله، يا أمير العراق ما أريد القيادة والمنصب، إنما أطلب منك أن تعينني على موتة في سبيل الله..

وأمام إلحاح ابن القاسم اقتنع الحجاج وقال وهو يربت على كتفه:

خذ يا بني سيفك وامض إلى بلاد السند مجاهداً وفاتحًا على بركة الله..

* * *

انطلق محمد بن القاسم والفرح يملأ جوانحه، لا لأنه أصبح قائداً وأميرًا، بل لأنها أصبحت فرصة جديدة لنشر الإسلام وطلب الشهادة في سبيل الله..

وظل ستة أشهر كاملة يعد جيشه المكون من ستة آلاف مجاهد، ولم يتركه الحجاج بل أخذ يجهزه بكل صغيرة وكبيرة مما يحتاج إليه في ساحة القتال، ولم يدع شيئًا إلا أمد به الجيش حتى الخيوط والمسالُّ والإبر لحياكة الثياب، وزودهم أيضًا بالخل لطعامهم..

وسار القائد الشاب بجيشه إلى بلاد مترامية الأطراف متسعة الأرجاء،

قوية الحصون، وجيوشها كثيرة العدد متعددة الموارد.. أما هو ففي قلة من الجند، وقلة من الموارد، وبُعد عن ديار الإسلام لإمداده بالمؤنة..

وفي الطريق لحق بجيش ابن القاسم ستة آلاف آخرين من جند الشام، ومن مدينة «مكران» ركب الجيش السفن، متجهًا إلى مدينة «الديبل» الساحلية حيث الأسيرات المسلمات..

فتح الديبل

في ربيع الأول عام (٨٩هـ) (٧٠٧م) سار محمد بن القاسم بالجيش الإسلامي متجهًا إلى بلاد السند، وقد حدد أول أهدافه وهي مدينة «الديبل» التي خرج منها قراصنة البحر واختطفوا المسلمات، ولم يجد محمد بن القاسم عناء كبيراً في فتح المدن التي مرَّ بها في طريقه إلى الديبل، ففتح «قزبور» و«أرمائيل» . .

وصل محمد بن القاسم «الديبل» فخندق بها، وأنزل جيشه في منازل محصنة، وبدأ استعداده للمعركة الكبرى. . نظر إلى أعلى مكان بالديبل فإذا هو حصن الصنم الأكبر لأهل السند وكان يُسمى «البدُّ» وهو صنم هائل الحجم ضخم البناء، لايستطيع أحد أن يتسلق سوره إلا بالسلالم، وكانت ترتفع فوق هيكله الضخم سارية كبيرة ترفرف عليها راية حمراء. .

وقال ابن القاسم مناديًا جنوده:

هيا أحضروا العروس.

و«العروس» عبارة عن منجنيق ضخم يجره أكثر من ثلاثمائة رجل، أمر محمد بأن ينصب أمام الصنم الأكبر ليكون تحطيمه إيذانًا بتحطيم الوثنية في الهند والسند وفتحهما للمسلمين.

وضرب بن القاسم الحصار حول حصن الصنم من جميع الجهات وضاق أهله بالحصار، ولكن مما كان يثبتهم أن صنمهم «البُدّ» ما يزال واقفًا في مكانه ضاربًا في عنان السماء كناطحات السحاب في أيامنا، وأدرك ابن القاسم ذلك فأمر الرماة بأن يوجهوا أول ضربة «للبُدّ» ليحدثوا فيه كسرًا تنكسر معه قلوب أهل الحصن ويستسلموا..

وأدار ثلاثمائة رجل المنجنيق الهائل «العروس» ووجهوا أول طلقاته من الحجارة الضخمة على سارية «البُدّ» فانكسرت السارية وأحدثت الطلقة دويًا هائلاً هزّ أنحاء المدينة..

وخرج أهل الحصن مندفعين في كل الاتجاهات يقاتلون المسلمين في يأس غير أنهم ما لبثوا أن عادوا ثانية إلى داخل الحصن، بعدما رأوا من قوة المسلمين..

* * *

وبعد أن هدأ غبار المواجهة الأولى.. نظر محمد بن القاسم إلى الحصن فوجد أسواره عالية، لا يصعدها أحد إلا بسلم، وبعد أن يصعد فإنه سوف يواجه رماح حراس السور..

وأمر ابن القاسم بالسلالم فنصبت على السور، ولكن من يصعد أولاً

ليفدي المسلمين بنفسه، أو يكون أول من يفتح أبواب الحصن ليدخل منه جند الإسلام ويحطموا الوثنية..

ودون تردد اندفع جندي من أهل الكوفة فصعد السلالم في سرعة مذهلة ثم أشهر سيفه وكبر، وأخذ يقاتل من يقف في وجهه حتى فتح باب الحصن، ودخله المسلمون مكبرين مهللين.. وبذلك فتحت مدينة «الديبل» وفرَّ واليها من قبل الملك «داهر»..

وكان أول ما فعله ابن القاسم في «الديبل» أن حطم صنمها «البُدّ» ثم اختط أحياءً للمسلمين ليسكنوا فيها، وأقام بها مسجداً، ثم ترك فيها حامية، وانطلق ليكمل الرحلة في فتح السند..

معركة الفيلة

انطلق محمد بن القاسم بعد فتح «الديبل» يفتح مدن السند مدينة تلو الأخرى، «البيرون» و«سهبان» و«سدوستان»، .. وغيرها من المدن فتحت جميعًا صلحًا وأمانًا إلا مدينة «سهبان» التي أصر أهلها على القتال فلقنهم المسلمون درسًا سمع به أهل المدن المجاورة ففضلوا السلم على الحرب..

وأصبح ابن القاسم وجيشه على ضفة نهر «مهران»، وما عليهم إلا أن يعبروا النهر إلى الضفة الأخرى ليصبحوا وجهًا لوجه أمام «داهر» ملك السند وجيشه الكبير، ليلتقوا في المعركة الفاصلة..

* * *

وعبر المسلمون النهر وفوجئوا بجيش «داهر» تتقدمه الفيلة وأصدرت صوتها المعروف..

وكان داهر نفسه يركب فيلاً ضخمًا وتحيط به مجموعة من المقاتلين يحمونه كالدرع..

ودارت معركة شديدة بين الطرفين، وكان صوت صهيل الخيل يغلب

على صوت الفيلة إيذانًا بنصر المسلمين.. وأمام تقهقر الفيلة وتراجعها ترك «داهر» الفيل ليقاتل مترجلاً وحوله دروع حديدية، ودروع بشرية من جيشه تحميه من هجمات أبطال المسلمين..

وقبل أن تميل شمس اليوم إلى المغيب، هجم مقاتل شجاع من جند المسلمين على الجند الذين يحيطون بداهر، وأمام هجمته الشجاعة تفرقوا مذعورين، وتركوا مليكهم «داهر» وحده ليلقى مصيره على يد الفارس المسلم، وهو القاسم بن ثعلبة بن عبدالله الطائي الذي وقف ينشد بعد أن قتل ملك السند:

الخيل تشهد يوم داهر والقنا	ومحمد بن القاسم بن محمد
أنّي فرجت الجموع غير مُعرد[1]	حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجندلا	متعفر الخدين غير موسد

وانتهت معركة الفيلة بانتصار المسلمين وفتح بلاد السند، ولم يبق أمام محمد بن القاسم سوى تطهير بعض الحصون والمدن التي هربت إليها أسرة «داهر» وتحصنت في بعضها..

(١) غير معرد: اي غير منحرف عن هدفي.

مدينة الذهب

كانت « الملتان » أهم مدينة مقدسة عند أهل السند، فهم يعظمونها ويفدون إليها من كل المدن ومن كل مكان، لزيارة صنمها الذي كان يدعى « البُدّ الأكبر»، وكان أهل السند يُلقون في ساحة المعبد قرابينهم من الذهب والأموال، وقد بلغ من ضخامة معبد « البُدّ الكبير» أو « البُدّ الأعظم » أنّ عدد سدنته والقائمين عليه بلغ ستة آلاف كاهن وخادم.. يستقبلون الوفود القادمة، ويشرفون على جمع القرابين وتنظيم الزيارة..

حاصر ابن القاسم « الملتان » وقد تحصن أهلها، فشدد عليهم الحصار، وتوالت الأيام وطال الحصار، ولم يستسلم أهل المدينة.

وفكر محمد بن القاسم في الأمر وكيف صمد أهل « الملتان » طوال هذه الفترة دون ماء فهداه تفكيره إلى أن إمدادات أهل المدينة من ماء وطعام تأتيهم من مكان سري لا يعرفه المسلمون، وعندئذٍ أغرى محمد بن القاسم رجلاً من أهل المدينة بالمال ليدلهم على هذا المكان، فدلهم عليه، ولما عرف سر إمداداتهم قطعها عنهم، وما لبث أهل « الملتان » أن استسلموا تحت وطأة العطش، وبعضهم قاتل يائسًا، فقتلهم المسلمون وأسروا من بقي منهم.

* * *

ودخل بطل السند المعبد الكبير، وفي غرفه وجد المسلمون كميات كبيرة من الذهب الذي كان يقدم على هيئة قرابين للصنم الكبير الذي حطمه المسلمون، ومع كثرة الذهب الذي جمعه المسلمون في حجرة واسعة، أطلقوا على الملتان اسم « ثغر بيت الذهب »، ويقصد بيت الذهب الحجرة التي خزن المسلمون الذهب فيها تمهيداً لنقله إلى أمير العراق . .

* * *

كان الحجاج أمير العراق في داره عندما رست في ميناء البصرة سفينة قادمة من السند، فانتقل إلى هناك، ونظر في حمولة السفينة مما أرسله إليه محمد بن القاسم فكان مائة وعشرين ألف درهم . .

وكانت النفقات التي صرفت على فتح السند فإذا هي ستون ألف . . فقال الحجاج متنهداً . .

ربحنا ستين ألفًا، وأدركنا ثأرنا، ورأس داهر . . وفتحنا الطريق لنشر الإسلام . .

(٢)

إمارة السند

* أمير السند.

* من السند إلى دمشق.

أمير السند

استتب الأمر تمامًا لمحمد بن القاسم في بلاد السند سنة (٨٩هـ) بعد سقوط «الملتان» في يده، وأصبح أميرًا لبلاد السند، وقد أصبحت جميعها ضمن البلاد الإسلامية، ما عدا مدينة «الكيرج» التي كان يحكمها ملك يدعى «دوهرا»..

* * *

عرف أهل السند في ظل حكم أميرها محمد بن القاسم نعمة الإسلام وعدله ورحمته..

كان محمد بن القاسم يعدل بين الناس جميعًا مسلمهم وكافرهم كما جاء في كتاب الله تعالى: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾..

وهكذا لم يمنعه كرهه وبغضه للهنادكة والهندوس الذين يعبدون الأوثان أن يعدل بينهم، ويرأف بالعجائز والضعفاء منهم ويعفيهم من الخراج ومن الأشياء المالية التي قد تكون مقررة عليهم.

ونتيجة لذلك أصبح عدد الذين يدخلون الإسلام في السند يزيد يومًا بعد يوم..

وأحب أهل السند مسلمهم وكافرهم أميرها المسلم محمد بن القاسم، حتى بلغ من حبهم له أن دله بعض الهنادكة على الكنوز المخبأة، والتي لا يعرف سرها أحد، وكانت مما اجتهد الكهان في جمعه، ومما حرص الملوك على خزنه، وهكذا انسابت الأموال في يد محمد بن القاسم، وأصبحت دار الإمارة في السند ملاذاً للمحتاجين والضعفاء والفقراء الذين كانوا يفدون على أمير السند، فيعطيهم بلا حساب مما أنعم الله على المسلمين من أموال ملوك السند التي جمعوها ظلماً وجوراً من شعوبهم..

* * *

وضرب بفاتح السند المثل في الكرم والعطاء، حتى مدحه الشعراء في ذلك، تماماً كما مدحوه بالبطولة والثبات في المعارك..

قال الشاعر أبوالجويرية يمدحه:

قل للذين بواسط وبغيرها ... ممن مسائله ترد وتنجح

السند.. ائت السند إن أميرها ... بحر يطمُّ على العفاة ويطفح

ما زال يعطي قاعداً أو قائماً ... حتى حسبت أبا عقيل يمزح

من السند إلى دمشق

وأثناء ولاية ابن القاسم للسند كان يرسل الهدايا وكل ما يراه نافعًا ومفيداً إلى أمير العراق الحجاج بن يوسف الثقفي، والذي يقوم بدوره بإرسال جزء منها أو كلها إلى دار الخلافة في دمشق.. وكثيراً ما كان الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك يعجب من هدايا السند إلى دمشق!!..

فبينما كان معظم أمراء وولاة الأقاليم والولايات التابعة للدولة يحرصون على انتقاء النفيس من الذهب والمجوهرات في هداياهم، كان محمد بن القاسم يختار النافع المفيد الذي يساهم في بناء الدولة وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاح في مرافقها..

يروى أن الطريق بين «أنطاكية» و«المصيصة» ذات سباع وحيوانات متوحشة تتعرض للناس أثناء مرورهم بين المدينتين، فقد كان هذا الطريق مهجوراً مما جعله مسكنًا لتلك السباع والحيوانات المؤذية..

وشكا أهل المدينتين إلى الوليد بن عبدالملك ذلك، فأرسل بدوره إلى أمير العراق الحجاج بن يوسف يأمره بإصلاح الطريق وصار الحجاج في تنفيذ أمر الخليفة، وعندئذ جاءه الحل من بلاد السند؛ إذ أرسل إليه محمد بن القاسم آلاف الجواميس ليستعين بها في إصلاح الطريق..

ومما يروى أن الحجاج أرسل أربعة آلاف من الجاموس إلى دمشق، ليستفيد منها الخليفة في شؤون الزراعة واستصلاح الأرض..

وأرسل أمير السند إلى دار الخلافة بدمشق مروراً بأمير العراق القوى العاملة البشرية، وهم جماعة من الزُّط معروفين بقوة العضلات والقدرة على العمل الشاق، فأمر الوليد بن عبدالملك بنقلهم إلى أنطاكية حيث إصلاح الأرض وتعمير الطريق، حتى أصبحت هذه الأرض الخربة أرضًا تجود بأطايب الثمار، وأصبح الطريق آمنًا..

(٣)

نهاية بطل

* آخر الفتوح.
* ثأر قديم.

آخر الفتوح

كان فاتح السند في دار إمارته بالملتان عندما جاءه نبأ وفاة ابن عمه أمير العراق الحجاج بن يوسف، تزاحمت الأفكار في ذهن محمد بن القاسم عندما سمع النبأ، فالحجاج بن يوسف لم يكن مجرد أمير للعراق وحسب، بل كان سنداً له ولقومه من بني ثقيف ضد كل من يطمعون فيما بين أيديهم من إمارة وسلطة.. وبوفاته أصبحت الفرصة سانحة لأعداء الحجاج كي ينتقموا منه في قومه آل ثقيف..

تزاحمت هذه الأفكار في ذهنه وهو يجهز حملة كبيرة لفتح بعض الثغور والبلاد السندية التي لم تفتح بعد، وقد نصحه بعض من حوله قائلين:

ابق أيها الأمير في الملتان ولا تخرج بجيشك حتى تتأكد أنك باق في حكم السند..

فقال محمد بن القاسم في حزم:

حاشا لله، وهل جعل جيش المسلمين ليحمي للأمراء مناصبهم؟! فقال أحدهم:

ماذا تعني بذلك أيها الأمير؟

فقال ابن القاسم:

أعني أننا سنخرج بعون الله إلى الغزو والجهاد؛ وليفعل بنو أمية بي ما يشاؤون..

وعاود أحد قادته يقول محذراً:

ألا تخشى انتقام أعداء الحجاج منك..؟

فقال محمد بن القاسم:

ما لي ولأعداء الحجاج.. إنما أعدائي هم أعداء دين الله تعالى الذين يمنعون نور الإسلام..

وهمَّ أحدهم بالكلام غير أن ابن القاسم أشار إليه بالصمت قائلاً:

كفى كلامًا يا قوم، هيا بنا نخرج إلى غايتنا..

* * *

وانطلق فاتح السند بجيشه يواصل الغزو والجهاد غير عابئ بما ينتظره من مصير.

وفتح ابن القاسم في طريقه مدينة «الرور» ومنها انطلق إلى مدينة «البغرور» ثم فتح الله عليه مدينة «البيلمان» سلمًا، ومضى منها إلى مدينة «سرشت» التي عرف عن أهلها اللصوصية والقرصنة مثل مدينة «الديبل»، فلما رأوا جيش فاتح السند طلبوا منه الأمان، فأمنهم على أن لا يقطعوا الطرق، وأن يتوقفوا عن أعمال اللصوصية.

* * *

وجهز محمد بن القاسم جيشه لفتح كبير هو آخر فتوحه في بلاد السند، وهو فتح مدينة «الكيرج» وكان ملكها «دوهرا» لا يقل قوة وسلطانًا عن الملك «داهر» ملك الديبل؛ ولذلك جعل فاتح السند هذه المدينة آخر فتوحه، بعد أن أمَّن جيشه بفتح المدن المحيطة «بالكيرج» حتى لا يبقى أمام ملكها مجال للفرار أو سند يدعمه..

انطلق جيش ابن القاسم يواجه جيشًا كبيرًا ضخمًا تتقدمه الفيلة، وذكرهم هذا اليوم بيوم معركة الفيلة التي واجهوا فيها الملك «داهر».

قاتل المسلمون قتالاً شديدًا حتى هزم الله أعداءهم وحاول الملك «دوهرا» الفرار ولكنه ما لبث أن قتل، وقال أحد الشعراء يصف هذا الفتح الجديد:

نحـــن قـتلنا داهــرًا ودوهرًا　　　　والخـيل تُروى منسرًا فـمنسـرًا

وكما بدأ فاتح السند فتوحه بنصر كبير على الملك « داهر » اختتم فتوحه بنصر كبير أيضًا على الملك « دوهرا ».

ثأر قديم

بعد فتح مدينة «الكيرج» رجع محمد بن القاسم إلى مقر إمارته بالملتان ليجد مفاجأة أخرى في انتظاره، فما كاد يستريح من عناء الرحلة حتى جاءه نعي الخليفة الوليد بن عبدالملك وولاية أخيه سليمان، سمع ابن القاسم الخبر وجلس على كرسيه مهموماً فوفاة الوليد تعني أن الثقفيين قد فقدوا السند الأخير لهم في الدولة الأموية، وخاصة وأن لسليمان بن عبدالملك ثأراً قديماً عند الحجاج بن يوسف، فكان يكرهه ويكره كل من يمت إليه بصلة، وكان لهذا الثأر قصة ترجع إلى زمن الخليفة عبدالملك بن مروان عندما قرر أن يكتب ولاية العهد لولده الوليد ثم لأخيه سليمان من بعد.. وفي ولاية الوليد أراد أن يعزل أخاه سليمان من ولاية العهد لينقلها إلى ابنه عبدالعزيز وأيده في ذلك الحجاج بن يوسف، وجاءت وفاة عبدالعزيز بن الوليد ليبقي سليمان في منصبه، وقد عزم على الانتقام من كل من ساند عزله من ولاية العهد..

وجاءت وفاة الوليد وولاية سليمان لتضع محمد بن القاسم وقومه وجهاً لوجه في مواجهة انتقام عدو لدود للحجاج وكل من يمت إليه بصلة..

* * *

نهاية مؤلمة

فوجئ فاتح السند وهو في دار إمارته بقرار سليمان بن عبدالملك بعزله عن ولاية السند، يحمله الوالي الجديد يزيد بن أبي كبشة، وقد جاء في أبهاء الإمارة، وقد استقبله محمد بن القاسم بهدوء نفس ورضا بما قدره الله..

ونفذ الوالي الجديد أوامر الخليفة سليمان بن عبدالملك، فقيَّد فاتح السند في الأغلال، وأخرجه من دار الإمارة تمهيداً لنقله إلى العراق..

خرج محمد بن القاسم من دار الإمارة مقيداً في أغلاله وقد تجمع حوله أهل السند يودعونه بدموعهم، يودعون أميراً أحبوه من كل قلوبهم.. أحبه كل أهل السند مسلمهم وكافرهم.. وقد كتبت كثير من القصص والقصائد في مدح أمير السند المعزول وهو يعلق على كلماتهم ببيت من الشعر يقول فيه:

أضاعوني وأيٌّ فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

* * *

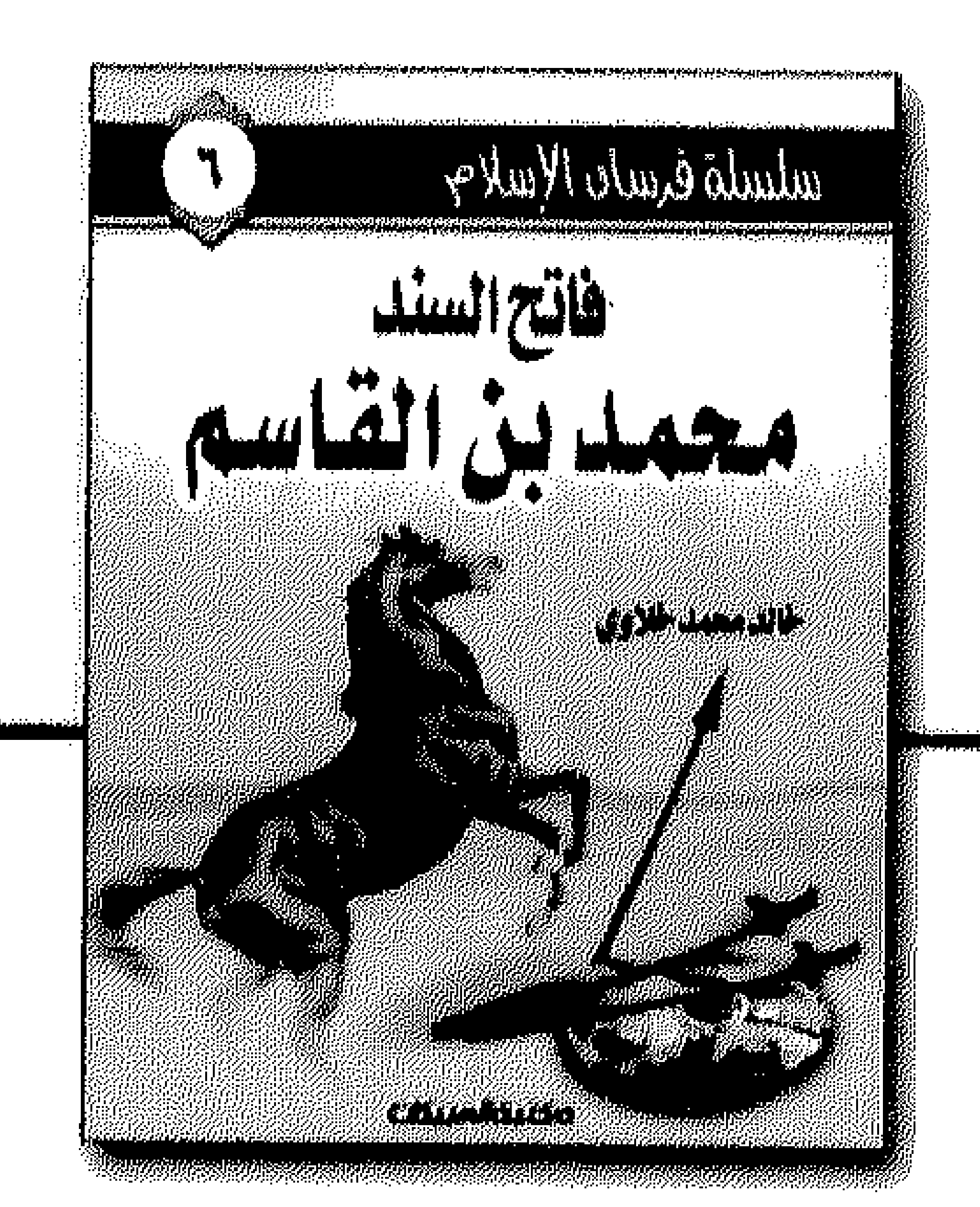
وفي العراق سلموا فاتح السند إلى رجل شديد العداوة للحجاج بن يوسف، فلقي محمد بن القاسم على يديه من الشدة والتعذيب في السجون ما لا يوصف، وكأنه ينتقم من الحجاج في شخصه، ومما زاد في ألم

محمد بن القاسم أن سجنه كان في مدينة «واسط» التي شهدت نشأته، وتدرب فيها على الجهاد والغزو ومنها انطلق إلى الفتوح الإسلامية..

هكذا واجه محمد بن القاسم نهاية مؤلمة، دون ذنب جناه، غير أنه ابن عم الحجاج بن يوسف.

المحتويات

الموضوع	الصفحة



تاريخ الإسلام مليء بالصفحات المشرقة لقادة عظام لجيوش المسلمين التي فتحت البلاد، ونشرت دين الله في أصقاع المعمورة، وعلى شبابنا أن يجعل نصب عينيه هؤلاء القادة كنماذج بشرية راقية؛ ليقتبسوا منهم مزايا وصفات رائعة تجعلهم أبناء صالحين لخير أمة أخرجت للناس.

وتقدم هذه السلسلة مجموعة من فرسان الإسلام في عصور مختلفة من تاريخ أمتنا، وكلهم سائرون على درب الجهاد في سبيل الله.

ومكتبة العبيكان حريصة على نشر هذه السلسلة

أيدي أبنائنا هذه النماذج المضيئة ليكونوا مثله

للإسلام وإعزازاً لأمتهم.

هذا والله من وراء القصد

